

البنية القرآنية وشخصية المسلم



"إذا التبت عليكم الفتن كقطع الليل المظلم فعليكم بالقرآن" الامام علي (ع). لا يجادل أحد في كون القرآن الكريم هدى أمةً وصنع تاريخاً، كما لا جدال في أن العلاقة التاريخية بين الشعوب المسلمة قائمة ومستمرة على أسس وضعها القرآن، وليس هذا استنتاجاً بل إن الرسول الكريم (ص)، وهو يرحل عن هذا العالم أهاب بالأُمَّة أن تتمسك بالقرآن، كما دأب أهل البيت (ع) على حث الناس على ذلك، وجعلوا التمسك بالقرآن، ضماناً لهذه الأُمَّة من الضلال ما بقيت. من جهة أخرى، واجه القرآن حركة مضادة جعلته هدفاً لحملاتها، فالقرآن منذ نزوله على الرسول (ص)، استُهدف بشكل خاص من قبل القرشيين، وغيره من مشركي الجزيرة، وكانت هناك حرب باردة محورها القرآن في مستهل نزوله المبارك. وان الإنسان ليعجب عندما يرى أن هذه المعركة لها نفس الملامح عندما تثار طيلة قرون طويلة، حتى يومنا هذا ويكون القرآن هدفاً، فينتهي إلى أن هذه الاستماتة اليائسة ضد القرآن انما هي دليل قوة وعظمة الشخصية القرآنية. كان هدف تعليمات القرآن الأوّل هو صياغة الرؤية الكونية للإنسان المسلم، وقد نفذ الرسول الكريم ما أَراده الوحي باعتباره المبلّغ للرسالة الإلهية والمعلم للمسلمين الذي بعث "في الأميين ليعلمهم الكتاب والحكمة". أو يعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وكثيراً ما ذكر لنا تاريخ السيرة، محاولات إرشادية من قبل الرسول لجعل رؤية المسلم تنطلق من محور قرآني، وتتحرك في الإطار الذي أَراده القرآن، وطالب المسلم في مختلف حالاته وتعامله مع الحياة سلباً وإيجاباً أن يكون له موقف قرآني، بمعنى أن يوجد

توافقه مع العالم على هذا الأساس، ولن يعدم المسلم في مختلف نشاطه الرصيد الرؤيوي في القرآن من خلال الإطار القرآني العام، أو الوقائع الجزئية، ذات المضمون الممكن اعطاؤه يُعداً عاماً. من هنا أراد الرسول (ص) من المسلمين أن يحفظوا القرآن في صدورهم ليعوه وعياً يحضر عند مواجهة كل موقف في الحياة، وشجع على ذلك، وكان كثير من المسلمين يحفظون القرآن، ويواجهون به تفصيلات حياتهم الخاصة والعامة، وكان هذا العمل طبق تعليمات القرآن يزيدهم علماً به، ويعمق إيمانهم بصورة عملية، ويملاً الفجوة بين المفاهيم الذهنية والواقع العملي الحي، كما يفيد هذا التطبيق علماً مستأنفاً هو نتيجة للعمل. ومن هنا نفهم حث الرسول (ص) على العمل بالعلم، فقد روي عنه: "من عمل بما يعلم ورثه العلم ما لم يعلم" وقال بعض الحكماء في تفسير قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمَمِ نَبِيًّا يُرْسِلُهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ وَالْحِكْمَةِ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) (الجمعة / 2)، ان معنى التلاوة هنا: التدريس: "علم الدراسة" ويزكيهم بالعمل فإن نفوسهم تنزكى بسببه "ويعلمهم الكتاب والحكمة" وهذا هو: "علم الوراثة" الذي أشار له الحديث السابق، فعلم الدراسة مقدمة العمل وعلم الوراثة نتيجة له، ومن هنا قيل أن العلم بلا عمل عقيم، والعمل بلا علم سقيم. إذن كان الرسول (ص) دؤوباً في بناء الشخصية الإسلامية على منوال تربوي فريد، وقد بلغ بأمانة ذلك الإطار التربوي الذي تصافح في ظلّه شخصية الإنسان المسلم وكانت هذه التربية تأخذ نسقاً منظماً، لا اعتباطياً ولا عفويّاً، بل هو تعليم العلم المقرون بالعمل، المعمق بالواقع الحي، الذي كان المسلمون يعيشونه بما فيه من أحداث عظيمة، وزخم يوشك أن يغير وجه التاريخ العالمي. - كما حدث! - حتى روي عن بعض الصحابة، أن الرسول كن يعلمهم عدة آيات، ولا يعلمهم ما يليها إلا بعد أن يعلموها ويعملوا بالعلم الذي فيها. وإذا كان الأفراد النابغون الذي تخرجوا من مدرسة ما دليلاً على عظمة تلك المدرسة، فإن ما قدم الإسلام من نماذج بشرية ذات مستوى إنساني رائع، لهي الصورة الحية والواقعية، الناجعة في صياغة الإنسان، القادر على أداء الوظيفة الإلهية التي أرادها له خالقه العظيم. - الشخصية القرآنية: الزمن النموذج في التاريخ الإسلامي، هو الفترة التي عاشها الرسول الكريم (ص) بين ظهرا ني هذه الأُمَّة، وكان فقده لا يعزي عنه شيء، وكان حزن المسلمين لا سيما الذين أحسوا بعمق الفادحة عظيماً، وكانت وفاته نهاية فترة مشرقة، وأيدانا ببداية زمن مختلف لا شك أنّه دون الزمن الذي عاشه الرسول بل ليس هناك مجال للمقارنة. إذن لا بدّ للأُمَّة من مفرعٍ تفرع إليه بعد وفاة الرسول (ص) وكان ذلك المفرع هو الوحي الذي خلفه الرسول "ثقلاً" و"أمانة" و"ذكرى" إلهية عظيمة، من زمن محتشدٍ بالبركة ضاحٍ بالآيات، معطرٍ بالوحي. وعلى مرّ القرون، أصبحت العلاقة بين الأُمَّة وكتابها ليس على

المستوى المطلوب، بل أصبحت أخيراً على المستوى العام شاحبة بل غامضة لا تعبر عن واقع ولا تنم عن حميمية. ورغم الإرث العظيم الذي خلّفه القرآن في نسيج شخصية الإنسان المسلم، إلا أن هذه الشخصية أصبحت مشوية بمزيج من ألوانٍ آخر يكاد يطمس على المسلم لونه، ويفقده مزاياه الخاصة، وكان لا بدّ من اطلاق صفةٍ أخرى على هذه الشخصية ليست بالشخصية الأولى التي أرادها القرآن الكريم وهو يبنى الإنسان في مستهل نزوله. إذن لا بدّ لدرء الفتنة التي تهددنا بمسخ شخصياتنا من استحضار الموقف القرآني في مواجهتنا اليومية للحياة. واستحضر هذا الموقف عند السلف كان يتأتى لهم باعتبارهم حاملين للقرآن تالين له بادمان، أما نحن حيث تعذّر علينا حفظه، وتساهلنا في تلاوته، حتى ترى الفرد منا لا يكاد يتم قراءته في العام مرة فضلاً عن الوعي والامعان في الفهم الذي هو ليس بالسهولة التي نتصورها بعد الحواجز التي جعلت بيننا وبينه. علينا - والحال هذه - أن نراجع مواقفنا من الحياة على ضوء الموقف القرآني منها، ونلمس هذا الموقف الذي لن نعدمه في القرآن على مختلف الأصعدة، العام منها والخاص، من أجل سد الثغرات العقائدية في شخصية المسلم المعاصر، التي أصبحت نوافذ مشرعة لرياح الشرق والغرب. - القراءة.. أم المعاشة؟ من أهم الفروق التي تميّز بها الرعيل الأوّل من المسلمين عنا، أنهم كانوا يعايشون القرآن معاشة ويحيون أحداثه.. فزمنه زمنهم، ووقائعه تاريخهم، ولغته لغتهم، ليس بمعنى اللغة العادي بل بالمعنى الحي للغة حيث يمكن، أن يشار إلى الأشياء، فالقرآن وهو "البيان" العظيم، كان يعبر عن تاريخٍ قيد العظمة، وأشياء بمستوى هذا التعبير، وهذه علاقة لغة القرآن يومئذٍ بالأشياء وإذا كان "الفرق الحاسم بين اللغة الميتة والحية أن الإنسان في الأولى لا يمكن أن يُرينا الأشياء". فلا ينطبق هذا المفهوم على اللغة القرآنية باعتبارها تشير باستمرار إلى أحداث وأشياء مستجدة في حياتنا، وهنا يكمن سر العربية الرائع، التي أشار لها الوحي الكريم في أسباب نزوله أصبحت مقياساً عاماً يخاطب به كل مسلم في كل زمان، فلغة القرآن تشير دائماً إلى شيء ما في حياتنا كما تشير إلى علاقتنا بالعالم من حولنا. ويكفي لأن نعايش القرآن أن نصغي لما تقول هذه اللغة وننطبع بوحياها، وليس هذا الأمر سهلاً إلى حدٍ يمكن تناوله متى شيئاً، كما إنّه ليس صعباً حيث يتعذر على المسلم الذي يسعى لذلك، فالقرآن قد يمتنع على القلوب التي لا تريد أن تفهم الفهم الذي يريده [] فلفهم طريقه ومنهج يؤسس على مبدأ إيماني ينبغي أن يتوفر عليه الإنسان، وبدون ذلك ستحجب عنه نعم الفهم ولكنه قد لا يمتنع ليس على المسلم فحسب بل على الكافر الذي يسعى وراء الحقيقة بل لا يمكن أن تسميه كافراً وهو على هذه الحالة بل هو إنسان لا يعلم. - في المنجم العظيم: قيل: "إنّ التفكير منجم"، والتأمل في كتاب [] هو دخول لمنجم عظيم، وربما ترددت في اطلاق هذا التعبير، ثمّ تذكرت ان اختيار كلمة (منجم) لمكان الثروة

الشرك"، و"النفاق" وما يحيط بها من مفاهيم، وتتحول في آياتٍ أخرى موضوعاً أساسياً موضحاً بمفاهيم آخر إلخ..